الآداب للدراسات اللغوية والأدبية
مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات اللغوية والأدبية
(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

11 العدد الحادي عشر
سبتمبر 2021

ملامح الخطاب الأنثوي في ديوان "ضوء لأقبية السؤال" للشاعرة السودانية روضة الحاج

د. منى بنت شداد المالكي*
almmona@ksu.edu.sa

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى استقراء بعض ملامح الخطاب الأنثوي في ديوان الشاعرة السودانية روضة الحاج، وإبراز ما فيه من دلالات وإيحاءات فنيّة وجمالية جسَّدت معاناة الذات في مواجهتها الآخر، ونقدها الثقافة الذكورية، وقد التمست ذلك من خلال معالجة عدد من المحاور المتصلة، وهي: تصوير معاناة الذات، ومواجهة الآخر، ومواجهة الثقافة (الذات واللغة، الذات ونقد الثقافة الذكورية)؛ ولمعالجة ذلك ستشتغل الباحثة على المنهج التحليلي لكشف ملامح الخطاب الأنثوي، واستجلاء تداعياته ومحمولاته الدلالية. وقد انتهى البحث إلى نتائج عدَّة أبرزها: أن سؤال الهوية كان من أبرز الهواجس التي جسدها خطاب الأنثى في الديوان كما أن الخطاب الأنثوي في الديوان عبر عن معاناة الذات وتشظيها نتيجة الإقصاء والتهميش اللذين مارستهما الثقافة برمتها تجاه المرأة بدءًا من العادات والتقاليد وانتهاء باللغة.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الأنثوي، الذات، الآخر، الثقافة الذكورية، روضة الحاج.

* أستاذ الأدب والنقد المساعد - قسم اللغة العربية - كلية الآداب – جامعة الملك سعود –المملكة العربية السعودية.

DOI: 10.53286/2118-000-011-007

مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات اللغوية والأدبية
(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508
الآداب للدراسات اللغوية والأدبية

Features of the Female Discourse in the Book "Light for the Cellars of the Question" by the Sudanese Poet Rawdah Al-Hajj

Dr. Mona Bint Shaddad Al-Maliki*

almmona@ksu.edu.sa

Abstract:

This research seeks to extrapolate some of the features of the female discourse in the poetry of the Sudanese poet Rawdah Al-Hajj, highlighting its artistic and aesthetic connotations that embodied the suffering of the Self while confronting the Other, as well as its criticism of the masculine culture. The poet has sought this by addressing a number of related axes, namely, portraying the suffering of the Self, confronting the Other, and confronting culture (the Self vs language, the Self vs criticism of masculine culture). In order to address this, the researcher will work on the analytical method approach to reveal the features of the female discourse, and to clarify its implications and semantics it conveys. The research concluded with several results, most notably: The question of identity was one of the most prominent concerns embodied in the female discourse in the book under study. The female discourse in the book under study expressed the suffering and fragmentation of the Self as a result of the exclusion and marginalization practiced by the entire culture towards women, starting with customs and traditions and ending with language.

Keywords: Female discourse, the Self, the Other, Masculine culture, Rawdah Al-Hajj

*Assistant Professor of Literature and Criticism, Department of Arabic Language, Faculty of Arts, King Saud University, Saudi Arabia.

المقدمة:

الأدب عامة هو خطابٌ نصِّيٌّ، لا يختلف من حيث المادة التي تشكِّلُ معمارية نصوصه بين أديبٍ وآخر، وتلك المادة هي اللغة بأصواتها ومفرداتها وتراكيبها، فالأديب -سواء أكان رجلًا أم امرأةً- يسعى جاهدًا لأن يجعل نصّه الأدبي نصًّا متميّزًا بأسلوبه اللغوي وبما فيه من مضمراتٍ تعكس الشخصية المبدعة ورؤاها وتطلعاتها تجاه الذات نفسها، وتجاه الآخر. ولما كان للخطاب الذكوري سلطة وهيمنة على الخطاب الأنثوي سعت المرأة جاهدةً في إثبات ذاتها، مزاحمةً الرجل في ذلك فتمردت عليه بفعل الكتابة التي جسّدت بها ذاتها فَوَعتْها، وَوَعَتْ العالم من حولها، ما جعل خطابها يتجلَّى بقوة في تصوير معاناتها والبوح بها، ومواجهة الآخر ونقد الثقافة الذكورية، والسعي نحو التغيير سياسيًّا واجتماعيًّا وفكريًّا، "وتعرية الفساد الذي يهيمن على الطبقة البرجوازية، وتعرية فساد السلطة الذكورية الطاغية بما فيها سلطة المثقف الذكوري"[1].

تنبع أهمية البحث من كون الشاعرة روضة الحاج إحدى الأديبات المعاصرات اللاتي صوّرنَ معاناة المرأة العربية عامة، في أعمالهن الشعرية؛ فجاءت نصوصهنّ لوحات كاشفة عن تلك المعاناة، ونظرًا لما في شعرها الأدبي من سماتٍ فنّيّة تعكس رؤى الشاعرة وتطلعاتها، إلى جانب معاناتها مع الذات ومواجهة الآخر، وتشخيص ذلك في صورٍ تتسم بالحركة والإيحاء والتجريد؛ فقد أرتأيتُ بعد قراءة متأنية لأعمالها الشعرية، واستقراءٍ لملامح الخطاب الأنثوي أن يكون ديوان "ضوء لأقبية السؤال" هو المادة البحثية لموضوع الدراسة؛ الذي عنونته بـ: (**ملامح الخطاب الأنثوي في ديوان "ضوء لأقبية السؤال" للشاعرة السودانية لروضة الحاج**). وفضلًا عن ذلك جدّة الموضوع، وعدم عثور الباحثة على أيّة دراسة تناولت شعر روضة الحاج بالتحليل والنقد، وذلك حسب اطلاع الباحثة وتنقيبها في أوعية البيانات والمصادر الإلكترونية والورقية والمكتبات العامة المعنيّة بالأبحاث والدراسات الأدبية والنقدية، وهذا ما دفعني إلى دراسة هذا الموضوع.

ويهدف البحث إلى الكشف عن ملامح الخطاب الأنثوي، وإبراز ظواهره الفنيّة ذات الدلالات المتعددة والإيحاءات المكثّفة التي جسَّدتْ الشاعرة من خلالها معاناة الذات في مواجهتها الآخر، ونقدها الثقافة الذكورية؛ وذلك من خلال نصوص اختيرتْ بعناية وبشكلٍ واعٍ تضمّنتْ تلك الملامح والظواهر الفنية.

وقد اتبعت الباحثة المنهج التحليلي لكشف ملامح الخطاب الأنثوي، واستجلاء تداعياته ومحمولاته الدلالية. واقتضت طبيعة البحث أن يكون في ثلاثة محاور -تسبقها مقدمة وتمهيد- وهي:

المحور الأول: سؤال الهوية وتصوير معاناة الذات.

المحور الثاني: مواجهة الآخر.

المحور الثالث: مواجهة الثقافة، وتمثّل في:

- الذات واللغة.
- الذات ونقد الثقافة الذكورية.

وقفّيت ذلك بخاتمة أبرزتُ فيها أهم نتائج البحث، ثم ألحقتها بقائمة المصادر والمراجع التي استفاد منها البحث.

تمهيد:

يُعَدُّ الخطاب الأنثوي أحد المصطلحات الدَّالَّة على الخطابات الإبداعية التي تنتجها المرأة، وقد يدلُّ على الخطابات الموجهة للمرأة في الوقت نفسه. وقد أثارَ تساؤلاتٍ كثيرة في الثقافة المعاصرة لدى الدارسين والنقاد، فَصيغتْ له مسمياتٌ عدّة؛ وفقًا لتعدد الأفكار واختلاف الرؤى الثقافية، فهناك: الخطاب الأنثوي، والخطاب النسوي، والخطاب النسائي، وخطاب المرأة...[2].

وعادةً ما تسعى المرأة بفعل الكتابة إلى تجسيد هويتها الأنثوية وتصوير معاناتها مع الآخر - الرجل الذي كان بدوره يحارب الوجود الهامشي لها- ومحاولة نقدها الثقافة الذكورية من خلال ما

تضفيه من محمولات على النص الأدبي الذي يبرز قدرتها الإبداعية في إنتاج خطابٍ يسهم في فهم المرأة لذاتها، والسعي نحو التغيير سياسيًّا واجتماعيًّا وفكريًّا، "وتعرية الفساد الذي يهيمن على الطبقة البرجوازية، وتعرية فساد السلطة الذكورية الطاغية بما فيها سلطة المثقف الذكوري"[3]، وعلى الرغم من ذلك فإنه -على حدّ تعبير شكري الماضي- "ما زال الخطاب الأنثوي في الثقافتين العربية والغربية ينهل من إرث الرجال، فالنصوص والخطابات النسوية تتفاعل وتحاكي وتجاري نصوص الرجال. وفي حالات بعينها يمكن لها أن ترفض وتتمرّد، لكنها لم تتخطَّ - حتى اللحظة- حدود التماهي المضاد"[4].

إن المتأمِّل في نصوص ديوان "ضوء لأقبية السؤال" للشاعرة روضة الحاج ليجد صورة الذات الشاعرة الباحثة عن هويتها، وصورةً للبوح عمّا تشعر به من نظرة إقصاء وتهميش مارستهما الثقافة تجاه المرأة عامة، والشاعرة خاصةً في أداء أدورها الفاعلة في المجتمع العربي، فهي تسعى لأن يكون خطابها الأنثوي الثقافي تحرريًّا. فالبحث عن الهوية هو بحثٌ عن "الثوابت والعقيدة والعادات والتقاليد والميراث الفكري لمجتمعٍ من المجتمعات؛ ذلك أن الهوية تتشكّل لتجمع بين كل المقومات التي تبني شخصية الإنسان، وتطبعه بطابعٍ خاص يميّزه عن البقية"[5]؛ والشاعرة روضة الحاج تبحث عن هوية الأنثى في نصوصها الشعرية لتميط اللثام عن تساؤلات عدّة كانت تؤرقها، ولتحطّم فكرة التهديد التي كانت تتعرض لها من قِبل الأنساق الثقافية المختلفة، "فغَدت اللغة الشعرية عندها حبلًا سريًّا يمتد بين البحث عن الذات وفك الحجب عنها، وفرض سلطة النص بوصفها كائنًا مستقلًّا، لها رؤيتها الخاصة وتصورها وتفردها أثناء رؤيتها للعالم"[6]، ولهذا تُعدُّ الكتابة الشعرية النسائية لغةً ينطق بها جسد المرأة، وتعكس أزمة الجسد الأنثوي أثناء فعل الكتابة، ذلك أن الهوية الذاتية أو هوية المتحدّث عن الهوية تحضر في الأسلوب الذي يستعمله في حديثه ذاته، وهكذا فإن مسألة الهوية لا يتعيّن البحث عنها في التاريخ والثقافة والجغرافيا فحسب بل في مبدأ تنظيم الخطاب ذاته"[7].

المحور الأول: سؤال الهوية وتصوير معاناة الذات

يوحي سؤال الهوية "بالشعور والوعي بكينونة الفرد"[8]، وهذا الشعور والوعي يؤسسان لتأصيل الهوية الذاتية والجمعية.

تبدأ روضة الحاج ديوانها "ضوء لأقبية السؤال" بإطلاق سؤال الهوية المؤرق بحثًا عن ملامح الذات التي انبهمت على الذات نفسها حتى قادها ذلك إلى إطلاق السؤال الذي تناسخ في سياق البحث عن الذات ليصير أسئلة:

ما لي أنا أشتارملء مواجعي لغةً

وأصدح بالغناء

ما لي أنا

أقتات أسئلة تقود لبعضها

حتام.. ماذا كيف، أين، متى، وما؟؟

مالي أنا

أشتاق

يعصف بي حنين آمرٌ

أخشاه ـ ويحي ـ كيف جاء؟؟

وأنا التي

أخفيت كل وشيجةٍ تفضي إلىَّ

عبرت قافلة

إلى حيث البدايات انتهاء

أوصدت هذا الباب من زمنٍ

وغلقت احتمال العود يومًا للوراء[9].

يمثل السؤال هنا مفتتحًا تلج الذات من خلاله إلى بوابات البحث عن الهوية التي اختفت وراء المفارقات المتعددة التي تتصارع في الواجهة: لغة مثقلة بالمواجع في مواجهة شدو وغناء، شوق جارف في مواجهة سبل مغلقة، عبور في مواجهة أبواب موصدة، بدايات تواجه انتهاء.

إن المفارقة ـ رغم دلالتها على التعارض الظاهري ـ فإنها ـ مع التأمل "تتضمن حقيقة توثق بين التناقضات"[10]، فالأحوال التي رصدها الخطاب للذات تتناقض في الظاهر، لكنها ـ في الباطن ـ تعمِّق حقيقة مفادها الجمع بين هذه التناقضات جميعًا في ذات واحدة، وهو في ذاته يحمل دلالات على تمزق الهوية وتشظي ملامح الذات.

ويتفرع عن دلالات التشظي والتمزق دلالات أخرى تدل على التهميش والإحساس بالدونية رغم أن الذات تمتلك من مظاهر الإبداع ما يجب أن يحول دون ذلك وهو أيضًا ضرب من التناقض الشديد الذي تعاني الذات من آثاره:

بابان تدخل كل أوجاعي

إلى رئتي جحيمًا منهما

أني ارتضيت العمر

شعرًا جامحًا قلقًا

وأني جئت من نون النساء

قلبي على نون النساء[11].

تفضي الأسئلة إذن إلى بابين للأوجاع، تفضي إلى قبوين: قبو تتمركز فيه الذات في حضرة الشعر والقبو الآخر يرتهن الذاتَ في سياق نون النسوة وهو ارتهان يقود الذات إلى منطقة وسطى بين التمرد والبوح، بين الرغبة في الاعتراض وإيثار الصمت، بين رفض القهر والإذعان للتهميش الذي تمارسه سلطات شتى إزاء المرأة،حتى اللغة تمارس ضد المرأة ضربًا من التعسف من خلال نون النسوة التي دفعتها إلى الأقبية المتعددة تتوارى فيها لتفسح المجال لضمائر المذكر؛ ومن ثم يمكن أن يكون السياق الشعري لـ"ضوء لأقبية السؤال" واحدًا من سياقات السجال بين المذكر والمؤنث في الوعي الراهن.

والتأنيث "بهذا يصبح مفهومًا ثقافيًا وليس صفة طبيعية"[12]؛ إذ يحمل دلالات على الفكر السائد في المجتمع، بما ينطوي عليه من تشبث بقيم الذكورة التي تتولى سحق الأنثى، ودفعها إلى الانطواء في عتمة الأقبية؛ انصياعا للهوية التي فرضتها نون النسوة على الذات، ولكنه في الواقع انصياع لثقافة المجتمع ومعاييره الاجتماعية والفكرية التي تمنح الأنثى دون ما تمنحه للذكر.

إن النص هنا يغدو ضربًا من الخطاب المقاوم الرافض لاستعلاء الآخر، غير أن الآخر في هذا السياق لا يقتصر على الطرف الأول من معادلة الذكورة والأنوثة بل إن الآخر هنا ربما يكون هو الثقافة بأسرها، وبما تحمله من قيم وأفكار وتوجهات "وهو الأمر الذي استدعى قيام محاولات الذات النسوية تغيير هذا الموقع من الآخر إلى الأنا "[13].

والذات في هذا الموقف الصراعي لا تخوض حربًا إزاء خصم واحد؛ لأن الثقافة هنا هي التي تتبنى رؤية هذا الخصم/الآخر وتعضد طرحه بوصفه هو الأصل وتنظر إلى الآخر/الأنثى بوصفه الظل والانعكاس، ومن ثم فإن عليها التزام الهامش في ظل أقبية بلا ضوء. لكن الضوء الذي تسرب لهذه الأقبية منح الذات فرصة للرصد والمساءلة؛ ولذلك فهي من خلال هذا الخطاب تقوم بمراجعة "موقعها من الوجود وعالم القوى المسيطرة لتجد أن تلك الذات تقبع في خانة التابع الذي يسير وفق خطة مرسومة له قبل مقدمه، إنها تعاني حرمان التجربة والتقييم والاختيار بل الثورة التي يتمتع بها شق الوجود الآخر/الرجل"[14].

وبناءً على ذلك فإن الأنا في خطاب روضة الحاج يعبر عن الأنثى المثقفة المأزومة التي يحاصرها الوجع، وتعانقها الهزائم وتسحق قصائدها مرارة التجاهل واللاجدوى في ظل إطار اجتماعي وثقافي يقدم الآخر ويؤخر الأنا لاعتبارات ذكورية:

تحتال في وجعي القصائد

والمداءات الجفاء

كل المرائي كالمرايا

تستحيل إلى سياج من شتاء

من أي معتمةٍ سيلمع مهربي

ولأي بحر تبحر الأضداد

في لغتي هباء

هذي ندوب مودتي

صحب مضوا

وهزائم علقت بباب القلب

أثبتها الرفاق الراحلون

يتبادلون أماكنًا جفت

ليخضروا فهل تتذكرون؟

هم حملوني وزر عطرٍ لا يغادر

أسلموني لاحتياجهم

وفاتوا

والمدى حولي سجون"[15]

تقبع الذات ما بين السجن والبحث عن مهرب توقًا للانعتاق من أسر التصورات الذكورية التي تمنحها الثقافة سلطة اتخاذ قرارت تركت ندوبًا ظاهرة في كيان الأنا المعذبة بتوالي الهزائم والاستسلام لوخز الذكرى الذي يدفعها إلى اللجوء إلى السؤال مرة أخرى، وكأنها تدور في دائرة مفرغة تبدأ بالسؤال وتنتهي بالسؤال:

وأنا هناك

على تخوم الغيب

عند العود واللاعود

أرقب من وراء الأفق آل

أمتد كالحلم المعزي

نسكب التأويل في عينيه أشواقًا

فقد يدنو المنال

ونظل نفتح في فضاء الروح أقبية السؤال.

الذات تظل رهن الانتظار، لكن الانتظار في هذا السياق يحمل دلالات خاصة؛ فهي في انتظار ما لا يجيء، فالمنتظر حلم التحقق، الفكاك من أسر التبعية الذي كرسته الثقافة للآخر، والحلم رهن الغيب والذات تلوذ بالاستشراف في محاولة بائسة لاستطلاع القادم. لكن الذي يلوح من خلال ستائر الغيب الكثيفة ما هو إلا سراب لكنه مع التأويل يتخذ تمظهرات أخرى؛ فقد يدنو المنال لكن الدلالة التي يحملها الحرف "قد" هنا من خلال اقترانه بالفعل المضارع تبدد ما يمكن أن ينتجه

التأويل من يقين؛ فتلوذ الذات ـ من جديد ـ بأقبية السؤال الذي أصبح في هذا السياق شرطًا للبقاء ومرادفًا للهوية، وسعيًا دائبًا للبحث عن الذات، وهو في الوقت ذاته يعد رفضًا لنسق ثقافي يقوم على فكرة السيادة التي تنعكس من خلال النص. فالسيادة هنا -كما سبقت الإشارة- لا تشير فقط إلى هيمنة الآخر /الذكوري على الأنا/ المؤنثة وإنما تشير إلى هيمنة المؤسسات الثقافية جميعها على الأنا؛ لأن "طبيعة التنافس أو الصراع بين الطبقات لا بد أن تكون حاضرة أو متجلية في أي نص أو خطاب وكأن هاته المؤسسات على تعددها تنتج في النهاية خطابها الذاتي الذي يبرهن حضورها وقوتها /سلطتها ويلغي كل خطاب دوني"[16].

وفي هذا السياق فإن الثقافة بمؤسساتها تمارس كل ضروب الهيمنة إزاء المرأة وإزاء كل خطاب أنثوى بوصفه خطابًا دونيًا يجب قمعه وإلغاؤه وإلقاؤه في أقبية معتمة، بالكاد يتسرب إليها ضوء السؤال بوصفه إشارة إلى مساءلة الذات المقموعة لثقافة المجتمع بما تنطوي عليه من أنساق مضمرة تمارس فعل الهيمنة ضد الأنثى وخطابها من خلال ثنائية المركز والهامش.

يكشف الخطاب الأنثوي في "ضوء لأقبية السؤال "عن ضرب من الصراع بين ذوات إنسانية وهو صراع يعبر عن رغبات متعارضة في الوصول إلى المركزية ومن ثم يغدو هذا الخطاب تجليًا "لصوت الأنا التي تصنع أفقها أو عالمها الذاتي إزاء عالم الآخرين"[17].

لكنها في سبيل بناء هذا الأفق تضطر إلى ضروب متعددة من المكابدات لعل أبرزها مكابدة الاغتراب والبحث عن الذات.. هنا يقفز سؤال الهوية مرة أخرى إلى عمق الخطاب:

عطشى وهذا البحر لي!!

حيرى

وأعرف كل نجم آفل في الأفق ضال

أمشي

وهذا الوقت يشرب ألفة الكلمات في روحي

ويهدي وحشتي هذا الكلال

وتصيح بي الغربات

تسألني الهوية:

أنت من؟؟

أنا؟؟

والمدى متفرج

يحصي خطوط الحزن في وجهي

ويهرب بالسؤال من السؤال[18].

تكابد الذات هنا سطوة النسق الذي اعتقل الحرية؛ حتى صارت الذات تتعطش إلى قطراتها والبحر على مقربة من الظمأ، وتكابد الذات أيضًا سطوة النسق الذي اعتقل الطريق؛ فأهدى الذات حيرة تعصف بكيانها وهي العالمة بالمسالك والآفاق.

وتكابد الذات في الوقت ذاته غربات شتى، غربتها عن ذاتها، غربتها عن الآخر، غربتها عن مواضعات النسق، وبذلك تدخل الأنا تارة أخرى في بؤرات الصراع من أجل تحقيق الذات ولم شتات الهوية.

ولعل الخطاب في إشارته إلى "المدى المتفرج" يحمل دلالة على سلبية النسق الثقافي إزاء التهميش الذي تتعرض له الذات الأنثوية بمباركة المؤسسات التي تمعن في التمكين للآخر وسلب هوية الأنا.

المحور الثاني: مواجهة الآخر

إمعانًا في تصوير مكابدات الذات، يتجه الخطاب إلى استدعاء شخصية شهرزاد بما تحمله من دلالات على مواجهة الآخر من خلال البعد الثقافي الذي يتجلى في خطابها ذي الطابع المعرفي الذي جابهت من خلاله سطوة الآخر/المذكر:

أنا لا أجيد القول إلا إن أردت

وربما فضلت صمتي

قبل إدراك الصباح

وبعد إتيان المساء

يا شهريار الشعر أجدر بالبقاء

يا شهريار الحب أجدر بالبقاء"[19].

ويتجه الخطاب هنا إلى إقامة ضرب من التوازي بين ذاتين: شهريار/الآخر، شهرزاد/الأنا، وفي السياق ذاته يستدعي الخطاب الشعر ليحمله دلالات معرفية تعلي من قيمة الذات الأنثوية بوصفها الطرف الذي يمتلك المعرفة؛ وبهذه المعرفة تمكن من مواجهة صلف الآخر/ المذكر في سياق القتل الذريع الذي كان الآخر يمعن في توظيفه مع الأنا في سياق الحكاية التي كان خطابها يتسم بالتحيز ضد الأنثى شكلًا وموضوعًا؛ ومن ثم كان اللقاء بين شهريار/الآخر، وشهرزاد/الأنا يجسد الصراع بين الحياة والموت من جانب، ومن جانب آخر فإنه يجسد الصراع بين "القوة والضعف، فالملك (السلطة) الذي هزته خيانة زوجته قرر الانتقام من العذارى بإعدامهن ليلة عرسهن، غير أن شهرزاد التي قرأت الكتب والتواريخ وسير الملوك استطاعت أن تؤجل قرار إعدامها بعد أن مهدت لسيدها الجبار طريقًا مشوقًا يثير حب الاستطلاع والفضول"[20].

غير أن استدعاء شهرزاد في هذا السياق يحمل دلالات بالغة الرهافة على الوضع المأزوم الذي وُضعت فيه الأنثى من خلال المواضعات الثقافية التي صاغت العلاقة بين الأنا والآخر في سياق ثنائية السيد والعبد وهو ما يمنح الآخر /المذكر سلطات واسعة تصل إلى حد تقرير المصير وتمنح الأحقية في الموت أو في الحياة.

ومن المفارقات التي يثيرها استدعاء شهرزاد في هذا السياق أنها رغم كونها الأنا المستضعفة تكتسي دلالات إيجابية؛ إذ إن "شهرزاد قد هدت الملك إلى إنسانيته وردته عن غريزته الوحشية لا بواسطة المنطق، بل بالعاطفة فصارت رمزًا للحقيقة التي يعرفها المرء عن طريق هذا الشعور والحب"[21].

وهذه الدلالات الإيجابية تحضر في الخطاب حضورًا عارضًا يتلمسه القارئ من خلال الدرس والتأويل.

لكن الحضور الأبرز لشخصية شهرزاد في سياق الخطاب المستضعف بفعل الثقافة ومواضعاتها في "ضوء لأقبية السؤال" يحمل دلالات ثقافية مركزية في سياق تجسيد الهوية الأنثوية والإعراب عن كيان المرأة العربية التي تعيش أسيرة عصر الحريم؛ إذ تنتهي آمالها "عند تحقيق حياة مادية باذخة تفيض بالترف والدعة والخمول وإن لم يتجاوز دورها في هذه الحياة كونها مجرد جارية تباع وتشترى"[22].

وقد تقاطعت روضة الحاج في استدعائها لشخصية شهرزاد مع كثير من الشعراء العرب المعاصرين الذين وظفوا شهرزاد في سياق الإشارة إلى الأنا المهزومة المستضعفة المغلوبة على أمرها؛ ولذا لم يخل هذا الحضور من دلالات ذات طابع سياسي حيث تبدو شهرزاد الأنثى المنسحقة بفعل الثقافة الذكورية "رمزًا للأمة المغلوبة على أمرها التي قدر عليها أن تعيش حياة مهينة لا هدف فيها سوى الترفيه عن سيدها المستبد شهريار رمز السلطة الغاشمة، تمتهن كلماتها وتذلها لترضي مزاجه المستبد وتبيع نصاعة كلمتها ونقاءها بثمن بخس؛ حياة ليلة جديدة تضاف إلى ليالي عمرها الذليل"[23].

المحور الثالث: مواجهة الثقافة

أولا: الذات واللغة

في سياق آخر من سياقات الخطاب في "ضوء لأقبية السؤال" تعلن الأنا المضطهدة عن مزيد من المكابدات التي تتعرض لها بفعل انحياز الأيدولوجيا إلى نسق من العلاقات الاجتماعية ذات الطابع الطبقي على كافة المستويات:

وحدي أرمم ما تعلّق من جسوربلاغتي

لأقولني صدقًا

فما يجدي المقال

لغة تآمرضد صوتي

تشتري ظمأي بآل

لغةٌ تماهى بالذين تقمصوا أحوالها

سدُّوا عليَّ دروب إيغالي إلى المعنى ولكني أصرولا أزال [24].

تشكو الذات هنا ضلوع اللغة بوصفها أحد أنساق الثقافة في تهميشها لصالح الآخر المذكر الذي سيطر على "كل الإمكانات اللغوية، وقرر ما هو حقيقي وما هو مجازي في الخطاب التعبيري ولم تكن المرأة في هذا التكوين سوى مجاز رمزي أو مخيال ذهني يكتبه الرجل حسب دواعيه البيانية والحياتية "[25].

ولذلك فإن الذات تعاني من عسف اللغة التي تبنت خطاب الآخر المذكر وتركت جسر بلاغة الأنا المعذبة للتداعي والانهيار. إن الذات ترصد الطابع الفحولي الذي تمظهرت به اللغة تلك اللغة التي تماهت مع الذكور الذين تقمصوا أحوالها ليحولوا بين الذات والمعنى إمعانًا في تذكير اللغة ونفي الآخر/المؤنث عن الحضور في سياقاتها.

وهو وضع يعبر عن ثقافة مأزومة لا ترحب بالتعدد رغم ما ينتجه من ثراء؛ فنحن "حينما نترك المجال لصوت المرأة كي يتكلم ويعبر فإننا بهذا نضيف صوتًا جديدًا إلى اللغة، صوتًا مختلفًا ونفتح بابًا للنظر ظل مغلقًا على مدى طويل وفي كل الثقافات"[26].

الذات في هذا السياق تطرح قضية التحقق على المستوى الإنساني، وهو ما يستتبع التحقق على المستوى الإبداعي أيضًا؛ وذلك سعيًا إلى أن تتجاور الأنوثة مع الفحولة في سياق واحد قائم على التعدد الذي يجمع بين "قيمتين إبداعيتين تحظيان بالدرجة نفسها من الاحترام والجدية ولكيلا يكون الأصل اللغوي هو التذكير فحسب، وإنما تأتي الأنوثة بما أنها أصل لغوي يقف بإزاء الأصل الذكوري ويجاريه"[27] وهو ما يقود ثانية إلى الموقف من الآخر/ الرجل الذي يمتلك سلطة التهميش؛ إذ تسعى الذات إلى التخلص من التبعية للآخر وهو طموح مشروع؛ لأن الطرفين: الأنا والآخر شريكان في إنتاج اللغة عبر المواضعة والاصطلاح ولكن اللغة -تأثرًا بالنسقية- تتناسى هذه الشراكة القديمة قدم اللغة ذاتها:

أجري بقيدي في فضاء مزاجها

أحتال للمعنى بكيدي كله

وأعود أجتر الذي

قد عافه يومًا نزوعي للمثال!!

لغة تناسى

أننا في البدء قد كنا معًا

نبني خلايانا

نسمّي كل شيءٍ باسمه

ومعًا تهجينا حروف الأرض

تمتمنا

لثغنا

وابتدأنا الخطوة الأولى

تعثرنا بظلينا

نهضنا واتحدنا بالظلال[28].

الذات تجري في فضاء اللغة مكبلة بمواضعات النسق؛ فاللغة لا تمنحها ما تريد من بهاء المعنى رغم أنها توظف كل ما أوتيت من كيدها العظيم، ورغم ذلك فإن العجز هو نتاج الفعل.

لكنه عجز من نوع خاص إنه عجز القادر الذي عرك الكلام لكنه آثر الصمت، إنه عجز العارف الذي يعاني مرارة التجاهل:

لغة تناثر

كلما جمعت أشيائي

احتشدت لمقدم المعنى

تفلت

وارتدى صمتي

وعجزَ القادرات على السجال[29].

والملاحظ في هذا السياق لجوء الأنثى إلى الإعراب عن هويتها مستعينة "بالألف والتاء" حينما أشارت إلى عجز القادرات وليس عجز القادرين، وهو ملمح من ملامح الخطاب النسوي الذي يتشبث بالوجود والمقاومة من خلال النص.

غير أن النص هنا يطرح جدلية المرأة واللغة على نحو لا يخلو من طابع سجالي؛ يرفض النظر إلى المرأة بوصفها تكتب بلغة تابعة للغة الرجل لأنها تتصل بما تتسم به المرأة من ضعف ومجافاة لليقين.

ولذلك تبدي الذات كل هذا القدر من الرفض والتمرد سعيًا إلى التحرر من الهيمنة الذكورية التي حاولت أن تفرض الضمير (هو) ليجمع بين الأنا/ المؤنثة، والآخر /المذكر في سياق واحد؛ لأن استخدام هذا الضمير ينطوي على تجاهل مقصود لذاتها وما تمتلك من رؤى.

ليست الذات الأنثوية هي فقط التي تتعرض للتهميش، وإنما تتعرض رؤيتها ونتاجها الأدبي كذلك للتجاهل والإقصاء ومن ثم تجد الذات نفسها واقعة بين خيارين أحلاهما مُر؛ فهي إما أن تبدع وتهمش أو تتوارى في الأقبية المظلمة وتنعم بالسلامة في ظل الصمت.

"فقد تم تهميش الكتابة النسائية غالبًا بحجة أن مخيلة النساء وخبرتهن محدودتان، ويردد النقاد آراء سلبية بأن الكاتبات قد فشلن في الخروج من قمقم البيت والأطفال والزواج والحب في كتاباتهن ونتيجة لذلك فقد فشلن في معالجة الاهتمامات الاجتماعية والسياسية لبلدانهن"[30].

وعلى الرغم مما يحمله الاتهام السابق من افتئات وبُعد عن الموضوعية فإن النظرة المتعسفة إزاء الإنتاج الأدبي النسوي لم تقف عند هذا الحد، وإنما اتجهت إلى مطالبة المرأة بالكتابة وفق المعايير الذكورية، "وسبب هذه الإشكالية أن النقاد يريدون أن تتوافق المرأة مع أحلام ورغبات الذات الذكورية، فيريدون منها تأنيث اللغة التي بها تكتب وعندما تكتب فلا بد أن يكون ذلك متوافقًا مع الصورة الذهنية التي رسمها الناقد الرجل"[31].

لكن الذات القابعة هناك في عتمة القبو، تكتب على شعاع الضوء الذي يتسرب من كوة الأمل تعاند هذا الطرح الذي تجافيه الموضوعية، وتجابه الآخر المتعنت المتدرع بالنسق الثقافي المنحاز له بإعلان العصيان على ما كرسه هذا الآخر من أحوال اللغة وأوضاعها:

لغة تنكرلي

وتسأل من أنا

الآن أدخل في ثقوب فراغها

أعصي فروض ولائها

وأرتب الأحوال وفق بداهتي

حالًا محال

الآن أنزع تاج تنويني

أثبته على رأسي

وأمشي في دلال.

ويتسم الموقف من الآخر (الرجل) في بعض السياقات بالتأرجح والتعرض؛ فمع رفض الهيمنة الذكورية تبوح بعض السياقات بموقف إيجابي من الآخر تصور الذات في سعيها إلى رأب صدعه ولم شتاته وجبر ما تكسر منه:

تقتضي حكمة البجع

أن نترك النهر هذا الشتاء

فدع كل شيء كما كان

علق على شجري

ما تساقط من ورق الوقت

ولكن غادر الآن

فالوقت جاء![32].

الذات تعرب عن قدرتها على إمداد الآخر بما يحتاج إليه في سياق يخلو من الصراع؛ ومن ثم فإنها تعلن عن سلسلة من الأفعال التي تصب في هذا الاتجاه:

غلق وراءك بابي

أنا سأرتب فوضاك بي

أعيد إلى أرفف العمر

كل كتاب رديء الطباعة

ثم أغير عنوانه لو أشاء(33).

لكن هذا التعرض الظاهري الذي يمكن أن يلحظ على موقف الذات من الآخر يمكن أن يفسر على أنه ضرب من الإيجابية المشروطة بامتلاك القدرة على الفعل وهو مظهرا من مظاهر تحقيق الذات، ولذلك تتعالى نبرة الأنا في هذا السياق لتنسب الأفعال إلى الذات: أنا سأرتب، أعيد، أغير، لو أشاء، فرفض الذات للآخر إنما هو رفض لاستئثاره بالمركز، رفض لممارساته الإقصائية وليس رفضا لذاته.

ثانيا: الذات ونقد الثقافة الذكورية

إن الخطاب هنا يندرج -بامتياز- تحت الخطاب النسوي المقاوم الرافض للتقليل من شأن المرأة وإبداعها من خلال استعراض ما تقوم به الأنا المضطهدة من طقوس الإبداع التي تحاول من خلالها التعالي على القيود التي اصطنعتها الثقافة لتغليب الكتابة الذكورية؛ ومن ثم فهي تسعى إلى تقويض صورة الفحل من خلال محاولة إثبات أنوثة المعنى وإمكان تأنيث الأسلوب في مقابل تذكير النسق للأسلوب وتحريره من عبودية التقاليد الذكورية، ولم لا يكون المعنى مؤنثًا وهو يمتلك كل هذه القدرة على التوالد والتفريع والتنويع، ويمتلك العديد من المظاهر والتجليات؟:

وهنا سأنصب خيمتي

وأعيد للمعنى أنوثته

وأركض في مدى الكلمات

أركض حرة

وجمال روحي

أنها روح الجمال[34].

ويتجلى موقف الذات من الثقافة الذكورية من خلال استحضار شخصية الخنساء التي استطاعت أن تنتزع اعتراف الثقافة ممثلة في النابغة الذبياني بمركزيتها في الرثاء؛ وهو اعتراف بتفوقها فيه على الآخر لكنه -تأثرا بالحيف الذكوري الراسخ في العقول- جاء اعترافًا مدججًا بـ"لو" الشرطية "وكان النابغة تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ وتأتيه الشعراء؛ فتعرض عليه أشعارها فأنشده الأعشى أبو بصير ثم أنشده حسان بن ثابت ثم الشعراء ثم جاءت الخنساء السلمية فأنشدته، فقال لها النابغة: والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفا لقلت إنك أشعر الجن والإنس"[35] وهو الموقف الذي صورته الشاعرة من منظور أنثوي ينتقد الموقف التراثي من المرأة لصالح الرجل الذي هو:

لنا الله يا أصدق الشاعرات

ويا أشعر الإنس والجن

ما ضر (شيخ عكاظ) إذا قالها دون لو

وماذا إذا جاء قبلك

أو جاء بعدك من كان بالسوق

أو لم يجيء[36].

ففي هذه الأسطر الشعرية تبرز الأنا الأنثوية من خلال استخدام الشاعرة الضمير (نا) في قولها: "لنا الله يا أصدق الشاعرات"؛ في صورة المرأة المستسلمة العاجزة عن فعل شيءٍ تجاه السلطة الذكورية -التي أشارت إليها بلفظ (شيخ عكاظ)- فعلى الرغم من ثقافة الخنساء وعلوّ مكانتها الشعرية التي كان لها أثرٌ في نفسية المتلقي(شيخ عكاظ)، فإنه أصدر حكمًا مقيَّدًا بلفظ (لولا) حين قال: "والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفا لقلت إنك أشعر الجن والإنس"[37]. فالشاعرة تعترض على ذلك الحكم الذي لم ينلْ ما كانت الشاعرة الأنثى (الخنساء) تسعى إليه، فما ضرّ شيخ عكاظ لو قال ذلك الحكم في استحسانه شعر الخنساء من دون لولا؟ فالشاعرو روضة الحاج في هذه الأسطر توجه نقدًا للسلطة الذكورية التي تصدر الأحكام تجاه ثقافة الأنثى، وتقيدها بمقيدات لغوية كالأداة (لولا).

الخاتمة:

إن سؤال الهوية كان من أبرز الهواجس التي جسدها خطاب الأنثى في الديوان، كما أن الخطاب الأنثوي في الديوان عبر عن معاناة الذات وتشظيها؛ نتيجة الإقصاء والتهميش اللذين مارستهما الثقافة برمتها تجاه المرأة بدءًا من العادات والتقاليد وانتهاءً باللغة. وقد عبّر الخطاب الأنثوي عن الأنا المرهقة التي ما زالت تسعى جاهدة إلى الإفلات من سلطة الآخر/ المتسلط في محاولة للصعود من عتمة الهامش إلى ضوء المركز. وقبل كل هذا فقد كان الخطاب الأنثوي في "ضوء لأقبية السؤال" سعيًا دائبًا يروم اكتمال الرؤية النسوية التي تحاول إثبات قدرتها على الاستقلال بمدار خاص يجسد رفضًا لفكرة القبول بالوجود الهامشي الذي يدور في فلك المركزية الذكورية.

الهوامش والإحالات:

(1) فيصل، تحولات الخطاب الأنثوي: 15.
(2) ينظر: عايش، وآخرون، المرأة والدور: 208.
(3) فيصل، تحولات الخطاب الأنثوي: 15.

(4) ينظر: عايش، وآخرون، المرأة والدور: 211.

(5) بن زهية، الهوية والآخر: 56، 57.

(6) بو شليقة، التجربة الشعرية النسائية: 119.

(7) نفسه: 120.

(8) زهران، علم نفس النمو: 299.

(9) الحاج، ضوء لأقبية السؤال: 5.

(10) نصار، معجم المصطلحات الأدبية: 315.

(11) الحاج، ضوء لأقبية السؤال: 6.

(12) الغذامي؛ ثقافة الوهم: 52.

(13) القرشي، النسوية قراءة في الخلفية المعرفية: 7.

(14) خليل، صورة المرأة في الرواية النسائية في بلاد الشام: 68.

(15) الحاج، ضوء لأقبية السؤال: 10.

(16) عليمات، النقد النسقي: 14.

(17) عليمات، جماليات التحليل الثقافي: 52.

(18) الحاج، ضوء لأقبية السؤال: 29.

(19) نفسه: 7.

(20) كحلي، أثر ألف ليلة وليلة في الشعر العربي المعاصر: 33.

(21) هلال، الأدب المقارن: 222.

(22) زايد، استدعاء الشخصيات التراثية: 160.

(23) نفسه: 162.

(24) الحاج،ضوء لأقبية السؤال: 30.

(25) الغذامي، المرأة واللغة: 7.

(26) نفسه: 12.

(27) نفسه، الصفحة نفسها.

(28) الحاج، ضوء لأقبية السؤال: 31.

(29) نفسه: 30.

(30) السيوف، قضايا المرأة: 21.

(31) نفسه: 22.

(32) الحاج، ضوء لأقبية السؤال: 36.

(33) نفسه:37.

(34) الحاج، ضوء لأقبية السؤال: 34.

(35) ابن قتيبة، الشعر والشعراء: 344.

(36) الحاج، ضوء لأقبية السؤال: 71.

(37) ابن قتيبة، الشعر والشعراء: 344.

قائمة المصادروالمراجع:

1) الحاج، روضة، ضوء لأقبية السؤال، أكاديمية الشعر، الإمارات، ط1، 2011م.

2) خليل، غادة محمود، صورة المرأة في الرواية النسائية في بلاد الشام (1951 ـ 2000)، أطروحة دكتوراه، الجامعة الأردنية، الأردن، 2004م.

3) زايد، علي عشري، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م.

4) زهران، حامد عبدالسلام، علم نفس النمو، عالم الكتب، بيروت، ط6، 2005م.

5) بن زهية، عبدالله، الهوية والآخر- قراءة في خطاب المثاقفة والإيديولوجيا- حكاية العربي الأخير2084- أنموذجًا، مجلة آفاق علمية، المركز الجامعي، الجزائر، مج 9، ع 2، 2017م.

6) السيوف، نبيلة فايز، قضايا المرأة بين الصمت والكلام في الرواية النسوية العربية، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 2002م.

7) بو شليقة، التجربة الشعرية النسائية من سؤال الهوية إلى سلطة النص، مجلة مقاربات، العلوم الإنسانية، المغرب، ع 24، 2016م.

8) عايش، حسني، وآخرون، المرأة والدور، نظرة أردنية: مؤسسة عبدالحميد شومان، الأردن، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2008م.

9) عليمات، يوسف، جماليات التحليل الثقافي: الشعر الجاهلي نموذجًا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004م.

10) عليمات، يوسف، النقد النسقي تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمَّان، ط1، 2015م.

11) الغذامي، عبدالله، ثقافة الأسئلة، دار سعاد الصباح، الكويت، ط2، 1993م.

12) الغذامي، ثقافة الوهم، مقاربات حول المرأة والجسد واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1998م.

13) الغذامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1997م.

14) فيصل، عاطفة، تحولات الخطاب الأنثوي في الرواية النسوية في سوريا، مجلة جامعة دمشق، مج 21، ع 1، 2، 2005م.

15) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

16) القرشي، رياض، النسوية - قراءة في الخلفية المعرفية لخطاب المرأة في الغرب، دار حضرموت للدراسات والنشر، المكلا، ط1، 2008م.

17) كحلي، خليدة، أثر ألف ليلة وليلة في الشعر العربي المعاصر، رسالة ماجستير، جامعة وهران، الجزائر، 2012م، 2013م.

18) نصار، نواف، معجم المصطلحات الأدبية، دار المعتز للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 143هـ، 2011م.

19) هلال، محمد غنيمي، الأدب المقارن، دار الثقافة، القاهرة، دار العودة، بيروت، د.ت.